الحقائق المحجَّبة صعود الإسلام السياسي في الغرب

مارك لينش *

في ربيع عام 2010م وصل طارق رمضان إلى الولايات المتحدة بعد عشر سنواتٍ من رفض إعطائه إذناً بالدخول إليها من جانب إدارة الرئيس جورج بوش، وقد علّلت الإدارة السابقة الرفضَ وقتَها بأنّ رمضان سبق له أن قدّم مُساعدةً لمنظمة خيريةٍ إسلاميةٍ تعمل في فرنسا، ولها علاقاتٌ بمنظمة حماس، لكنْ في يناير الماضي أعلنت وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلنتون أنه لا مانع من دخول طارق رمضان إلى الولايات المتحدة، ويبدو أنّ مجيئه إلى أميركا يعكس المتغيرات التي طرأت على الخطاب السياسي تجاه الإسلام والعالم الإسلامي، ففي يونيو عام 2009 تحدث الرئيس أوباما في القاهرة عن جهدٍ ينبغي أن يُبذل للتواصل مع المسلمين من طريق "الاهتمام المتبادَل والاحترام المتبادَل"؛ ولذا فإنّ شخصياتٍ إسلامية تُعَدُّ رموزاً للإسلامية غير العنيفة - والتي أُدينت من قبل لاتّهامها بإقرار التطرف – يمكن أن يُنظر إليها الآن بوصفها جسراً للتواصل بين ضفتين ما كان التقاؤهما متصَّوراً من قبل؛ بيد أنّ بول بيرمان لا يعترف بشيءٍ من ذلك. ففي كتابه: هروب المثقفين (2010) - والمتأسِّس على مقالةٍ طويلةٍ (28 ألف كلمة) سبق أن نشرها في مجلة New Republic قبل ثلاث سنوات- يشنُّ هجوماً على مَنْ يُسمَّون بالمعتدلين المسلمين، يذكّر بخطابات عهد الرئيس بوش، ففي نظر بيرمان يخوض كثيرون بالولايات المتحدة وأوروبا حروباً ضدّ العدوّ الخطأ، فالإسلاميون العنيفون ليسوا هم الذين يشكّلون الخطر الأكبر؛ بل إنّ أبناء عمِّهم المعروفين بأنهم "معتدلون" هم الخطر المضاعَف لأنهم يستطيعون التغرير بالليبراليين السُذَّج ودفْعهم للمعانقة والوُدّ الزائد، فالمعتدلون هؤلاء الذين يرفضون العنف –وهو رفضٌ مجتزأٌ على أيّ حال؛ لأنه لا يشمل إسرائيل، ولا القوات الأميركية بالعراق- لا يستحقون التصديق؛ لأنهم يتجهون إلى التضليل. وفي نظر بيرمان فإنّ مشروع الإسلاميين للتغيير الاجتماعي الجذري وضع الأفراد المسلمين تحت وطأة العنف لأنه فرض عليهم العيش في بيئاتٍ محدودةٍ ومُحاصرة، والإجابة الوحيدةُ الممكنةُ على هؤلاء –عند بيرمان- تتضمن محاولة إنقاذ المسلمين من المعتدلين المضلّلين هؤلاء، بواسطة ليبراليين حقيقيين يتمتعون بالصفاء والصراحة.

إنَّ هذا الجدال الذي يؤجِّجُهُ بيرمان لا يساعد في الحقيقة أولئك الذين لديهم هواجس بشأن صعود الإسلام السياسي في الغرب، فقد لامس الكاتب موضوعاً مهماً بشأن علاقة الإسلام بالغرب؛ لكنه مقصِّرٌ جداً عن أن يكونَ قبطاناً ماهراً للخروج من العواصف الهائجة التي تحدَّث عنها، فقراءته للظاهرة الإسلامية استندت إلى مراجع ثانوية قليلة مُترجمة، ولا تشكّل أية أهميةٍ تمثيليةٍ في المجال الأكاديمي ضمن بحوث تلك الظاهرة، ولذلك ما أمكن له

أن يفهم السياق السياسي والفكري الذي تدور فيه تلك الأدبيات، فهو يجهل بل يعمى عن التعددية الكبيرة والمتنافسة العناصر والتوجهات في المجال الإسلامي، وحتى داخل بعض الجماعات ذاتها، وفوق ذلك، فهو لا يعرف الحروب الدائرة بين السلفية الصافية - التي تدعو لإسلام نصّيٍّ يَبْعُدُ بالإسلام والمسلمين عن "شرور" الحداثة والتغريب – وبين أولئك الحداثيين البراغماتيين الذين يبحثون في الطرائقِ التي تربط الإسلام بالعالم المعاصر، ثم إنه "مهجوسٌ" بالنازية والفاشية إلى حدودٍ منفرة، ونافرٌ من طارق رمضان إلى حدودٍ مَرَضية، ويُضاف لذلك أنّ إدانياته لمثقفين مثل Ian Buruma وTimothy G. Ash لا- تُشعر بأي شيءٍ من النزوع الليبرالي الذي يدّعي الانتماء إليه، وهذا أمرٌ مؤْسفٌ، ويدعو إلى تساؤلاتٍ قويةٍ ومُزعجةٍ بشأن بيرمان نفسه وثقافته وأهدافه، لقد طرح الإسلاميون غالباً –وحتى غير العنيفين منهم- تحدياتٍ على الليبراليين الغربيين، تُصادمُ الشروط السياسية والاجتماعية التاريخية لليبرالية: فما هي وُجوهُ التلاؤم الممكنة التي تقف عند حدود الاعتقاد الديني، ولا- تخون مبادئ التنوير؟ وماذا نفعل مع الشعبية والقوة الانتخابية التي تتمتع بها الحركاتُ الإسلامية في العالم الإسلامي اليوم؟ وهل يمكن أن ندعم الديمقراطية دون أن ندافع عن حقوق الحركيين الإسلاميين في المشاركة، وحتّى في كسْب الانتخابات؟ ومع ذلك فإنّ برامج وجداول أعمال تلك الحركات تبعثُ على القلق لدى الليبراليين والديمقراطيين، وحتى إن كانت تلك الحركات تدعم طموحات الجمهور في التحول الديمقراطي عَبْرَ العالم. وإذا لم تكن الحرب الثقافية مع الإسلام هي المطلوبة، فكيف يكون على الليبراليين الغربيين أن يستجيبوا لطموحات الإسلاميين ذوي الشعبية الكبيرة، والذين لا- يمارسون العنف، ويقبلون العمل من خلال المؤسسات الديمقراطية؛ لكنهم يدعون لقيمٍ مخالفةٍ للأعراف المتقدمة في الحرية والمساواة والتسامح؟

الآباء والأبناء:

إنّ طريقة بيرمان لمعالجة هذه المسائل هي التصدي لها من خلال شخصية طارق رمضان وفكره ونشاطه، ورمضان مثقفٌ مسلمٌ بارز مولود بسويسرا عام 1962م، وهو يتحدر من أصولٍ مصريةٍ إسلاميةٍ عريقة. فجدُّهُ لأُمِّه هو حسن البناّ مؤسِّس جماعة الإخوان المسلمين بمصر عام 1928م، ووالدُهُ سعيد رمضان، أحد كبار الجماعة، ومن الذين فرُّوا من مصر هرباً من مُلاحقة نظام الرئيس جمال عبدالناصر، يدرس بيرمان أصول رمضان وشخصيته بتوسُّع (من خلال تتبُّع سيرة حسنِ البناّ وسعيد رمضان)، كما يدرس بنيته الفكريةِ والأيديولوجية ومصادر التأثير فيه (متطلعاً إلى الإسلامي المصري المقيم بالدوحة بقطر: يوسف القرضاوي)، وإلى أطروحته غير المنشورة للدكتوراه، وكتبه، والبحوث النقدية المتنامية عنه؛ لكنْ دون أن يتحدث إليه مباشرةً فيما يبدو، وعلى أي حال، فبعد سنواتٍ من العمل والجمْعِ، ومئات الصفحات من التلخيصات والملاحظات، يقول بيرمان: إنه وجد رمضان شخصية غامضة! فهو يذهب إلى أنّ رمضان يملك جدول أعمالٍ سرّيّ هو هويته الحقيقية؛ لكنه ما استطاع أن يُرِيَنَا "بندقية يتصاعدُ منها الدخان"!، وهو يرى أنّ رمضان "ليس جزءًا من مؤامرةٍ ماهرةٍ... أو خطة سرية"، وأنّ طموحه

"إلى حدٍ ما، هو ما يقول: إنه يسعى إليه.."، لكنّ هذا الطموح بالذات - أي النهوض الإسلامي بأوروبا - هو الأمر الذي يزعج بيرمان إلى حدٍ كبير.

تكمن مصاعب وشكوك بيرمان في المفاهيم الموجودة والدائرة في المجتمعات الديمقراطية في الغرب، والأخرى السائدة في بلدان الأكثرية الإسلامية ذات الأنظمة الشمولية؛ في كيفية فهم مسائل الهوية والانتماء، وممارسة شعائر الدين، والمشاركة في العمل السياسي، ورمضان رجلٌ عمليٌّ، يبحث للمسلمين الأوروبيين عن طريقة يستطيعون من خلالها أن يكونوا أوروبيين تماماً، وأن يبقوا مسلمين تماماً، ففي كتابه الصادر عام 2003م بعنوان: "مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام" - والذي يقول بشأنه بيرمان: إنه "يُخفي الحقيقة وراء حجابٍ من المجازيات"- هو في الواقع تأسيسٌ لفكرةٍ بنّاءة مؤدَّاها تمكين المسلم من أن يكون مواطناً كاملاً ومندمجاً في الدول التي يقيم بها، ويبقى مسلماً محتفظاً بانتمائه الديني، وفي كتابه الآخر: "بماذا أؤمن؟" يصبح رمضان أكثر وضوحاً: "إنني أُقرّر بحزمٍ هنا أننا نمتلك وجوهاً متعددةً ومتحركة للهوية والانتماء، وإنني لا أرى مانعاً قانونياً أو ثقافياً أو دينياً يحول دون أن يكونَ الواحد منا أميركياً أو أوروبياً ومسلماً في الوقت نفسه". وهذا التزامٌ إيجابيٌّ، ما يلبث أن يزيده تأكيداً بقوله: "يستطيع المسلمون الأفراد أن يكونوا كذلك ويبقوا مواطنين ملتزمين واعين بمسؤولياتهم وحقوقهم"؛ لكنّ هذا الخيار بالذات هو ما يرفضه بيرمان، فهو يريد من المسلمين أن يكونوا علمانيين، ولا يرى إمكانية لقيام ذلك الجسر الذي يقترحه رمضان؛ ذلك أنّ الفهم المجتزأ الذي يمتلكه للسياسات الإسلامية يجعله لا يدرك أهمية دعوات الأوروبيين المسلمين للمشاركة في العمل السياسي من موقع المواطنة والمساواة، ويقلّل بيرمان من شأن إدانة رمضان للإرهاب؛ بل وللفقه السلفي الضيّق، فرمضان لا يملك أيَّ ميولٍ أو عواطف للصعيَغ البيوريتانية (= الطهورية) من الإسلام، والتي وجدت مقتصراً في بعض المجتمعات الإسلامية، وحاولت أن تطرد صعيَغ التقوى والتعبُّد والتديُّن الأخرى، وهي العملية التي سمّاها خالد أبو الفضل الأستاذ بجامعة لوس أنجلوس: السرقة الكبرى!

والواقع أنّ بيرمان يُصوِّر نضال رمضان بصورةٍ معكوسة، فخصوم رمضان الرئيسيون ليسوا الليبراليين في الغرب؛ بل الأحرى القول: إنهم السلفيون المتشددون، الذين تزدادُ حركتيهم في مصر والخليج وحتّى في أوروبا الغربية. وهؤلاء السلفيون يَرَونَ أنّ حركة كحركة الإخوان المسلمين هي شديدة التسيُّس، بحيث تتقبل المؤسسات المدنية، وتبدو أكثر حماساً وإظهاراً لشعائر الإسلام وأشكاله في المجال العام، ويدعو السلفيون المسلمين للانفصال عن المجتمعات الغربية لصالح المعتزَلات الأكثر إصغاءً للطهورية الإسلامية، لقد شجّع الإخوان المسلمون النساء على ارتداء الحجاب، إنما من أجل أن يُظهروا تمسكهم بالشعائر والأحكام في السوق ومكان العمل والجامعات، أمّا السلفيون فيريدون أن تبقى النساءُ في البيوت، وأن يظللن في عُزلةٍ عن الرجال. إنّ الليبراليين الحقيقيين ينبغي أن يدعموا مقاربة رمضان؛ لأنه يعرض على المسلمين المهاجرين نموذجاً للاندماج باعتباره مواطناً كاملاً وعَلنياً، بدلاً من مقاربات القوى التي تدعم نماذج

للانعزال والاتّباعية النصوصية.

وما أخْفى طارق رمضان تحدَّيهُ للسلفية وراء لغةٍ تجريدية، أو في الخفاء والسرّية دون الخطاب العام، وعلى سبيل المثال فعندما تحدّاه الاتّباعيون بالآيات التي تورث المرأة نصف ما يرث الرجل؛ قال رمضان إنّ هذه الآيات تتطلب مراجعة وإعادة تأويل في ضوء الوقائع الجديدة والتي بمقتضاها تقوم نساءٌ كثيراتٌ برعاية أولادهنّ منفردين ودونما مساعدةٍ من آبائهم، فبحسب رمضان يكونُ على المسلمين "أن يحرصوا على مثال العدالة وقيَمها بدلاً من الانحشار في تطبيق النصوص متظاهرين بالأمانة للقرآن، ومتسببّين في الظلم والفساد في الأرض". وهذه مواجهةٌ صريحةٌ للتقليديين والسلفيين لا يهتمُّ لها بيرمان ولا- يقدِّرها حقَّ قدرها، وفي حالةٍ مُشابهةٍ تعود للعام 2005م فإنّ طارق رمضان دعا لإعادة النظر في مسألة الحدود، بما في ذلك رجم مرتكبي كبيرة الزنا، وقد سخر بيرمان من محاولته هذه معتبراً أنها أقلّ من اللازم والضروري بكثير؛ لكنها في الحقيقة والواقع لمن يعرف الأجواء الإسلامية تشكّل تحدياً كبيراً لفقهاء السلف وجداول أعمالهم.

على أنّ رمضان يُخيِّبُ آمال مُحاوريه الليبراليين بالفعل؛ لأنه لا- يعتبرهم مرجعيته الأساسية أو مركز اهتمامه؛ ذلك أنّ حساباته الاستراتجية تجعل من الجمهور الإسلامي قلب توجُّهه وأقصى غاياته بما في ذلك منازعهم السياسية وطموحاتهم في مواطن هجرتهم، فالأكثرية الإسلامية هي التي ينبغي أن يكتب لها إذا أراد لبرنامجه الإصلاحي أن يجد استجابة وطريقاً للإصغاء والتحقّق، ومع أنّ منزعَهُ هذا قد لا- يكونُ هو نزوع الليبراليين الكلاسيكيين، فإنه مشروعٌ ومبرَّر؛ لأنه السبيل الوحيد للمسلمين – وكلِّ المؤمنين- للمشاركة في نظامٍ ليبرالي وديمقراطي. وكما يذهب أندرو مارش - وهو منظِّر سياسي وأستاذ بجامعة ييل- فإنّ الليبرالية السياسية في الغرب ينبغي أن تكون قادرةً على استيعاب المواطنين المسالمين والخاضعين لحكم القانون، والذين لا تحرّكهم غير دوافع دينية. ويكون على الولايات المتحدة- التي تحضُرُ فيها جماعاتٌ دينيةٌ كبرى، وقوى أصولية سياسية، من بين كل المواطن في العالم- أن تكون قادرةً على فهم كيف يعمل ذلك كُلُّه.

إنّ هذا لا- يعني أنه ليس من حقّ الليبراليين أن تكون لديهم تحفظاتٌ على مشروع رمضان؛ فهو يُعَرِّفُ الشريعة –منظومة الفقه الإسلامي- ليس باعتبارها قانون البلاد؛ بل باعتبارها منظومة أخلاقية فردية، مدعومة باعتقادات المؤمنين ودينهم. لماذا يكون هذا النوع من الاعتقاد مزعجاً؟

ففي النهاية، إنّ هذا النوع من الاعتقاد والسلوك هو الذي يحاول بواسطته المؤمنون التصالح مع الدولة المدنية؛ إنما في الواقع؛ فإنّ المشروع الإنجيلي للتغيير الاجتماعي – تغيير العالم "نفسٌ واحدةٌ في كل زمان"- هو أكثر راديكالية وعمقاً من كلّ رؤى المتطرفين، فكل أحد يستطيع اغتصاب سلطة الدولة بالقوة، ثم فرْض إرادته بالعنف، ولذا فإنّ القوة الحقيقية تكمن في القدرة على الدفع باتجاه الإجماع، بحيث يعتنق الناس الأفكار

بدون إرغام، وهذا يعني أن يريدوا ما تريد، لا أن يفعلوا ما تريد، ويمتلك الإسلاميون غير العنيفين هذه الدرجة من القوة الناعمة، وبفعل ذلك، نجحوا في تغيير الثقافة العامة عبر العالم الإسلامي، وعندما تسير في شوارع القاهرةِ اليوم - على سبيل المثال- تجد من العسير أن تُصدِّق أنه قبل عقودٍ قليلةٍ ما كانت غير قلة من النساء ترتدي غطاءَ رأس.

الافتراقات والانشقاقات:

إذا أردنا أن نفهم النزعة الإسلامية الجديدة، فيمكن أن نعتنق إحدى مقاربتين: المقاربة الأولى تذهب إلى أنّ النزعة الإسلامية تيارٌ واحدٌ له فروعٌ متعددةٌ، والتشابهات بداخله أكثر من الافتراقات، وبحسب هذه النظرة فإنَّ الإخوان المسلمين والقاعدة يمثّلان فرعين لنزعةٍ أو تيارٍ واحد، والاختلافُ بينهما هو في التكتيك وليس في الأهداف، وفهمٌ كهذا يجعل من الممكن –إن لم يكن من الضروري- رؤية أُسامة بن لادن يُطلُّ من وراء سحنة طارق رمضان! أما المقاربة الثانية أو الأخرى فترى افتراقاتٍ وتمايُزاتٍ في الأيديولوجيا والسلوك بين الجماعات الإسلامية المختلفة، وخلال العقد الماضي منذ أحداث 11/9 رأينا الولايات المتحدة تتحرك من المعسكر الأول إلى الثاني، فتجربة الولايات المتحدة في التعاوُن مع الوطنيين العراقيين الثائرين ضد القاعدة في العراق دفعت صُنّاع القرار السياسي لتفضيل استراتيجية تعترف بالاختلافات بين الإسلاميين، وتعمد لاستخدام هذه الاختلافات من أجل المُضيّ في عملية تهميش القاعدة، وقد عمد مُراقبون في الولايات المتحدة وأماكن أُخرى إلى تبنّي المقاربة نفسها بعد أن لاحظوا أنّ الإخوان المسلمين يشاركون في الانتخابات، ويدافعون عن الديمقراطية في بلدانٍ كمصر، رغم اختلاف هؤلاء مع الولايات المتحدة وأهدافها في السياسة الخارجية. يتّخذ بيرمان بحماس سبيل المقاربة الأولى من حيث إنه يمزج سائر الإسلاميين معاً، وبالنسبة له؛ فإنّ وجوه النزعة الإسلامية تتعدد من جاحظي العيون الذين قتلوا المُخرج الهولندي تيوفون كوخ، وإلى الراديكاليين الأغفال الذين ينشرون الرُعب في مجتمعاتهم, ومن القرضاوي "الرهيب", وإلى رمضان المتظاهر بالوداعة واللطف، صحيح أنّ رمضان انتقد أُسامة بن لادن وأدان الإرهاب؛ بيد أنّ بيرمان لم يتأثر؛ لأنه يرى أنّ العنف هو مظهرٌ لمشكلةٍ أعمق في المشروع الإسلامي، والليبراليون لا ينبغي أن ينخدعوا بالبيانات الليّنة أو الميول الديمقراطية للإسلاميين غير العنيفين أو يحسبوا أنّ الدخول معهم في نقاشٍ منفتح يخدم المسلمين بأيّ شكل: "إنّ المسلمين الليبراليين إنما يستترون بهذه الأمور... لدى ذوي النوايا الحسنة مِن المراقبين من خارج العالم الإسلامي، الذين يريدون التضامُن مع المعذَّبين والمضطهَدين من المسلمين، فيلجأون إلى أفكارٍ خاطئةٍ عندما يعتبرون أنّ ميراث حسن البنّا يمثّل الصوت النبيل والأصيل والأكثر استحقاقاً للاحترام في الإسلام المعاصر..."، وهو مُحقٌ في أنّ الإسلاميين يثيرون الشكوك لدى العديدين من المسلمين الليبراليين والعلمانيين لكنّ هذه الجماعات –سواءٌ أحببتُ ذلك أو كرهتُه، وكذلك بيرمان- لا تمثّل غير أقليةٍ صغيرةٍ في صفوف المسلمين اليوم، وبالتركيزُ عليهم فإنّ بيرمان إنما يتجاهل المعارك الأكثر أهمية والدائرة في قلب الأكثرية الإسلامية في هذه الأزمنة،

ويمكن رؤية هذه الصراعات وتطوراتها في تجربة رجلٍ مثل القرضاوي، الذي يلعبُ دوراً رئيسا في كتاب بيرمان. إنّ "اهتمام" بيرمان بالقرضاوي الفقيه والداعية ونجم التلفزيون يخدم غرضه في الاستدلال على "تطرف" المعتدلين من الإسلاميين، فالقرضاوي إنما نال الشهرة –بحسب بيرمان- بسبب فتاويه في دعم الانتحاريين الفلسطينيين الذين يقتلون المدنيين الإسرائيليين!، وعندما يُقدِّرُ رمضان "وحشاً" كهذا – ولا يعتبره فظيعاً- فإنّ رؤيته للعالم تكون بالغة التشويه، على أنّ بيرمان "يُشوِّهُ" شخصية القرضاوي بالفعل، بحيث لن تعرفه في هذه الصورة الكاريكاتورية غير قلةٍ قليلةٍ من المسلمين.

وبالفعل فإنّ القرضاوي هو شخصيةٌ بالغة الأهمية والحضور، وهو يقعُ في قلب التطورات في العالم الإسلامي، وهو مُدافعٌ قويٌّ عن المشاركة الديمقراطية، وناقد كبير للقاعدة، وقد جعله ذلك مرجعية كبرى لدى التيار الأكثري، وموضوعاً للغضب والنقد لدى السلفية الجهادية، وهو مشهورٌ بنظريته في الوسطية، الواقعة بين العلمانية والأصولية، وهو يرفض العقائديات المتشددة للسلفيين، والتطرف المقترن بالعنف لدى القاعدة، وفي كتابٍ أخيرٍ له أدان تصرفات القاعدة ووصفهم بالجنون "لإعلانهم الحرب على العالم"! إنما وفي كثيرٍ من الأحيان؛ فإنه يختلف مع السياسة الخارجية الأميركية، وهو بالتأكيد مُعادٍ لإسرائيل، وأحد أكبر ممثلي وجهة النظرِ الإسلامية، والدعوة الإسلامية في هذا العصر، وهذا المزيج ربما يكون خطيراً أحياناً؛ لكنها هي أفكار وأمزجة الكثرة الكاثرة بين المسلمين اليوم، ولا شكَّ أنّ أحد مصادر قوة القرضاوي قدرته على استقراء وجهات نظر المسلمين والتعبير عنها وتمثيلها، ومثل رمضان؛ فإن القرضاوي يُعتبر "بارومتراً" للرأيْ العامّ الإسلامي، بقدر ماهو جزءٌ أصيلٌ فيه ومنه، ويرى بيرمان أنّ تقدير رمضان للقرضاوي هو الذي يحولُ دون القطع مع المتشددين الإسلاميين؛ في حين أنّ عملية القطْع هذه ضرورية لكي يكونَ المرءُ إصلاحياً حقيقياً؛ لكنّ بيرمان يفشل في التعرف على مَواطن أحَدث فيها رمضان قطيعة مع المتطرفين، وقد كلّفه ذلك غالياً، وقد اختلف كلٌّ من رمضان والقرضاوي عدة مراتٍ في السنوات الأخيرة، فقد رفض رمضان دعوة القرضاوي لمسلمي أوروبا أن تظلَّ مرجعيتُهم الدينية في بلدانهم الأصلية، كما أنه رفض العمليات المسلّحة ضد المدنيين الإسرائيليين، والتي دعمها القرضاوي أحياناً، ورأى أنه على الفلسطينيين أن يتابعوا نضالهم بوسائل الكفاح السلمي غير العنيف مثل العصيان المدني، وهذه الجدالات لا تشير إلى انفتاح رمضان ونقديته وحسب؛ بل وإلى التغيير الذي حصل في توجهات القرضاوي وآرائه، فقد لاحظْتُ أنه في السنوات الأخيرة؛ فإنّ آراءه صارت أكثر مُحافظة وحروفية وتفكيرية أحياناً، وربما أمكن فهمُ ذلك بتغير الرياح في أوساط الإسلاميين. فالسلفيون يكسبون المزيد من الأرض في كل الأنحاء، يساعدهم في ذلك فشل الإخوان في تحقيق أيٍّ من طموحاتهم في المشاركة السياسية، كما يُساعدهم وجود القدرات المادية في متناول أيديهم، وهي ما تزال تصل إليهم مؤسَّساتٍ وأفراداً، ثم إنّ طهوريات السلفيين تقدم حلولاً مبسَّطة لأبناء الجاليات الإسلامية بأوروبا، والذين

تَواجهُ أعدادٌ كبيرةَ منهم مشكلاتٍ عميقة تتعلق بالهوية والإحساس بالاغتراب، وقد أحسّ القرضاوي بهذه المتغيرات وحاول استيعابها بهذه الطريقة، إنما المعروف أنه في الربيع الماضي فقد الرجل سيطرته على الموقع المعروف باسم: إسلام أون لاين، وكان هو الذي أسَّسه، وذلك عندما تولّى السلفيون العمليات التحريرية، وطردوا مجموعاتٍ من العاملين محسوبين على الإخوان المسلمين، وعندما حاول القرضاوي التدخُّل جرى عَزْلُهُ من مجلس الإدارة من جانب مالكي الموقع من القطريين، ويُعتبر ذلك أكبر ما نزل بشخصيةٍ رئيسته مثل القرضاوي هي عمادُ الناشطين الإسلاميين عبر العقود الثلاثة الأخيرة. أما المراقبون مثل بيرمان - والذين ينظرون إلى الظاهرة الإسلامية باعتبارها مسطَّحة وموحَّدةَ، رغم الاختلاف حول العنف وحول المشاركة الديمقراطية- فإنهم يعجزون عن الوصول إلى تقديرٍ صحيح لسائر المسائل. صحيح أنّ هناك مشتركات بين سائر الأطراف - من مثل إقامة الدولة الإسلامية - إنما تبقى في الحقيقة اختلافاتٌ بارزةٌ بين رؤية السلفيين للمجتمع الشديد التوحُّد والخضوع في كل شيء، والنظرة الأكثر حداثة والتي تتحدث عن الديمقراطية والمشاركة والمؤسسات المدنية وحكم القانون في مجتمعٍ مسلمٍ ملتزم، فالاختلافات كبيرةٌ وشاسعةٌ، بحيث لا يمكن بالفعل الحديث عن هذه الجماعات باعتبارها موحَّدة في الاستراتيجيات والأهداف، والذي أراه أنّ رمضان يقف على الجانب الصحيح من المشهد، كما يقع في قلب اهتمامات المسلمين والعالم الإسلامي، وهو يدافع عن البراغماتية والمرونة والمشاركة الاجتماعية، وأن يصبح المسلمون مواطنين كاملين في مجتمعاتٍ ليبرالية.

إنّ دفاع رمضان عن المشاركة يضعُهُ في موقعٍ مُعارضٍ تماماً للنصوصيين والراديكاليين الذين يُحاول بيرمان وَضْعَهُ معهم، إنّ الحلقات المتشددة من السلفيين الجهاديين تنظر إلى كل المجتمعات الإسلامية باعتبارها فاسدةً ومنحرفة إلى أبعد الحدود، أو أنها جزءٌ من الجاهلية، التي ينبغي أن يبتعد عنها ويكافحها المسلمون الحقيقيون، وتنصبُّ دعوةُ رمضان على التغيير من الداخل. فخلايا وتنظيمات الإخوان المسلمين تعرض على الناس مستوصفات طبية ومدارس وخدمات أُخرى؛ في الوقت نفسه الذي تستخدم فيه تلك الخدمات للدعوة والاستقطاب، وستبدو هذه الأمور أليفة بالنسبة للقريبين من عمل الجماعات الإنجيلية الأميركية، بالحوار المؤدَّب، وبالنشرات المتنوعة، وتصوير أنفسهم بأنهم أطهارٌ ومستقيمون وشِريفو الغَرَض، وهناك فرقٌ بين المرأة التي تضع الحجاب خوفاً من أن يُسكب عليها الأسيد، والأخرى التي تتحجَّبُ طاعة لأحكام الله عزّ وجلّ، إنما هناك أيضاً شكلٌ آخرُ من الإرغام: ضغوط النُخَب، وضغوط العادات الاجتماعية، والاحتياجات المعيشية، والتي لايمكنُ إدراكُها من الخارج أحياناً، وهذه مشكلاتٌ تحتاج على دراسةٍ وتأمُّل.

بيد أنّ بيرمان لا يحاول القيام بذلك أيضاً؛ إذ هو يرى فحسْب مجموعات من العوامّ المتعصِّبين، وليس أفراداً يبحثون عن معنًى لحياتهم، في سياقاتٍ معينةٍ وتحدياتٍ معينة، ما يراه بيرمان فحسب جموع ساكنة وخاضعة مرغمة على التلاؤم ولا تستطيع المقاومة

(ربما لأنّ إرادتهم أضعفتْها مقالة إيان بوروما!)، ولا يخطر على باله أنّ الإسلاميين الجدد هؤلاء ربما يقدّمون معنًى آخر لحياة أولئك الساكنين في صفيح المدن البائسة، أو أنّ الجماعات الإسلامية ربما تكون الوحيدة العاملة على الأرض لتحسينِ ظروف حياة أولئك الناس، فبالنسبة لمسلمينِ كثيرِين؛ يعرض الإسلاميون هؤلاء حياةً أفضل للناس في هذا العالم، وليس فقط في العالم الآخر؛ وبخاصةٍ وسط غياب الخيارات الأخرى الأكثر أمَلاً، على أنّ هذه النقطة لا ينبغي أن يُساءَ فهمُها، فرغم دعاوى الإخوان المسلمين؛ فإنّ تنظيمهم ليس ذاك التنظيم "الحديث" الذي يتحدث أنصارُهُ عنه، ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ طبيعة التنظيم وشكله تختلف من مجتمعٍ لآخَر، كما أنّ "خطاباته" تعكسُ أحياناً مناطق رمادية مُقْلقة، وقد أشار لذلك تقرير مؤسسة كارينجي للسلام عام 2006م، ويُحجم رجالات الجماعة في أكثر الأحيان عن إعطاء تصريحات واضحة في قضايا حسّاسة مثل موقع غير المسلمين في الدول الإسلامية، والموقف من المسلمين العلمانيين، ومن هي السلطة المخوَّلة بالاجتهاد والقرار في المسائل الفقهية، ثم إنّ رفض الإخوان المسلمين للعنف داخل المجتمعات الوطنية لا يمتدُّ إلى المجتمعات التي تحت الاحتلال مثل فلسطين والعراق، وهذه الأمور قد لا تُسرُّ كثيراً من الأميركيين؛ لكنها –سواء أزعجنا ذلك أم لا- تمثّل مواقف الأكثرية في أنحاء العالم الإسلامي.

ثعالب الصحراء:

إنّ كثيراً من نقاشات بول بيرمان في كتابه: هروب المثقفين, والتي كان يمكن استقبالها بجدية، قد غرقت في المساعي الحثيثة للرجل لاصطناع نَسَبٍ يربط الإسلاميين المعاصرين بالنازيين الألمان، ويشكِّل إصرارُهُ على مصطلح "الفاشية الإسلامية" فوائده - رغم أنّ معظم المسلمين يعتبرون ذلك إهانة لهويتهم وثقافتهم- دليلاً على غربته عن الواقع الإسلامي لصالح النخبوية الفكرية المتلاعبة، وهو يعقد بالفعل فصلاً طويلاً في الكتاب مادتُهُ مأخوذةٌ من كتابٍ بعنوان: الدعاية النازية في العالم العربي لزميله في التفكير المدعو Jeffrey Herb ومحطُّ الاستدلال في الفصل المذكور أنّ حسن البنا والمفتي أمين الحسيني كانا شديدَي الإعجاب بالقادة الألمان مثل أدولف هتلر وجوزف غوبلز، ولا علاقة للعرب بالطبع بالهولوكوست؛ لكنّ بيرمان يخصّص كلاماً طويلاً للحديث عن علاقة المفتي الحسيني بالنازيين، وإعجاب البنّا بالحسيني وأفكاره في الثلاثينات من القرن الماضي، رأى الحسيني أنّ الألمان هم أفضل الحلفاء في وجه البريطانيين المستعمرين لفلسطين، والمشروع الصهيوني الصاعد والذي بدأ يرسل اللاجئين إلى فلسطينٍ، ثم إنه غطّى مشروعه بعناوين إسلامية لكسْب تأييد الجمهور، وهذه الوقائع أقلّ جاذبية لبيرمان من الفكرة القائلة: إنّ المفتي الحسيني كانت لديه عقيدةٌ ما، وإنما تحالف مع النازيين على أُسُسٍ لاهوتيةٍ واضحة! ولكي يدعم فكرته الغربية هذه يسارع للاقتباس من مارك كوهين الأستاذ بجامعة برنستون والمختص بتاريخ اليهود في العالم الإسلامي، وكوهين يوردُ رأياً ثم يرفضه، وخلاصتُهُ أنّ المفتي كان منغمساً في مشروعٍ غريب لتوجيه الإسلام وجهة أُخرى! ولا ندري في النهاية ماذا يريد بيرمان، هل الأخْذ بالشائعة أم برفْض كوهين لها!

وبالإضافة لذلك كله؛ فإنّ بيرمان يتجاهل جوانب تاريخية جمَّة هي التي أسهمت في صناعة الإسلامية المُعاصرة، ففي الخمسينات اضطهد نظام الرئيس عبدالناصر الإخوان المسلمين, وانتشرت كتابات الأيديولوجي البارز سيدّ قُطب، وقد أسهم الأمران في إحداث انشقاقٍ أدّى إلى صعود الإسلامية الجديدة، وكان البنّا ينافس على مقاعد في البرلمان، ويحتفظ في الوقت نفسه بتنظيم عسكري سري مثل معظم الأحزاب المصرية آنذاك، أما في فترة سيد قُطب فقد كان على الإسلاميين إمّا أن يهربوا من مصر أو يقاسوا الإرهاب في غياهب السجون، وهكذا فقد كان حسن البنا يريد العمل من ضمن نظام الدولة –وهو الأمر الذي يريده حفيدُه- وهذا الأمر ما عاد بوسع قطب أن يفعله، وهكذا فقد رأى قطب أنّ المجتمع المعاصر مليءٌ بالمنافقين والمرتدّين الذين استبدلوا بحكم الله حكم الإنسان، وبعد العام 1970 فإنّ الإخوان رفضوا رأي سيد قطب، وتحمسوا للمشاركة في سائر أعمال الدولة ومؤسَّساتها في كل أنحاء العالم العربي، أما أنصار قطب فقد انصرفوا لممارسة العنف، ومع ذلك فإنّ بيرمان ينكر وجود هذا الانقسام، وفي الردّ على الرأي القائل: إنّ قطباً لم يعرف البنّا؛ قال بيرمان؛ بل إنه يعرفه بالمعنى الميتافيزيقي، وهذا الكلام لا يمكن الدفاع عنه، ويدعو لرفض المسألة برُمّتها. أمّا لجوء بيرمان إلى النازيين فلكي يسوِّغ استعمال مفهوم الفاشية الإسلامية، ويدعو بيرمان رمضان إلى إدانة المفتي وحسن البنا بسبب قُربهما من النازيين، وعندما يرفض رمضان ذلك فإنه يتهمه بإخفاء أسرار أكثر إظلاماً. وعدم اهتمام رمضان بهذه المسألة لا- يعود إلى عدم موافقته عليها؛ بل لأنها لا تعني بالنسبة له شيئاً في الوقت الحاضر، ومن المؤسف أن تضيع آراء الليبراليين المسلمين غير العنيفين وسط ضجيج الجدال المحتدم.

الحقائق المقبولة والمكتَشَفة:

ومع ذلك فإنّ بيرمان يكشف عن موضوعٍ مُهمّ؛ إذ الواقع أنّ الإسلاميين أعادوا تشكيل محيطهم بطرائق لا- تُرضي المثقفين الأوروبيين والأميركيين، والإسلاميون بالفعل يضعون عقيدتهم في رأس الأولويات، ويعملون على تطبيقها في القانون والسياسة والمجتمع، ولا شكّ أنّ دعوتهم وأعمالهم الاجتماعية وسياساتهم الحزبية؛ كُلّ ذلك ساعد في تغيير المجتمع من الجذور، وهذا يخيف الليبراليين والعلمانيين والنسْويين وغير المسلمين، الذين لا- يريدون الاعتراف بأنّ ذلك يشير إلى تغيُّر الأكثرية، وأقوى الحججِ لإنكارِ هذا النفوذ المتصاعد للإسلاميين وخوض النقاشات معهم: أنهم يعرضون حلولاً مؤقتة لمشكلاتٍ كبرى، ويحوّلون المشكلات باتجاهاتٍ أسوأ، فقد يكون الإسلاميون ديمقراطيين؛ لكنهم ليسوا ليبراليين، وهذه الحقيقة أو النجاح يشير إلى أنّ التوجهات غير الليبرالية ستكون أكثر قوةً في المجتمعات، وسيجعل ذلك الأوضاع أصعب على الولايات المتحدة وسياساتها؛ بيد أنّ هذه الوقائع بالذات تجعل من عدم تفرقة بيرمان بين أنواع الإسلاميين خطأً فادحاً، وقد لا- يكون طارق رمضان ليبرالياً؛ لكنه مُصرٌّ على مشاركة الجميع، وعلى اجتناب العنف وتحبيذ الاندماج، بعكس المتطرفين، وهناك أسبابٌ أُخرى لعدم مواجهة الإسلاميين كأنهم جماعةٌ واحدة:

السبب الأول: يتمثل في الديمقراطية والحريات السياسية، ففي كثيرٍ من المجتمعات ذات الغالبية الإسلامية، تُعَدُّ بعضُ الأحزاب الإسلامية بين الأكثر تنظيماً، وهي تُمثّل المعارضة، أمّا خصومُهُم فهم في الغالب من الشموليين، والجهات التي تواجه الإسلاميين تُواجهُ وتضطهد أيضاً دُعاة الحريات السياسية التي يدعو إليها الليبراليون، وقد لا يكون الإسلاميون غير العنيفين ليبراليين؛ لكنهم يقبعون في السجون، ويعانون من القمع؛ وبذلك يكونُ على الليبراليين والديمقراطيين ودعاة حقوق الإنسان أن يلتفتوا لهذا الأمر؛ لكي يحفظوا صدقتيهم في عيون الرُعاة والجمهور.

والسبب الثاني: أنّ الإسلاميين غير العنيفين هم الأكثر إنكاراً لتطرف القاعدة وإرهابها، وقد وقف الإسلاميون المتحولون (= قوى الصحوة) بالعراق ضد المتطرفين وعُنْفهم، وقد ساعد الإسلاميون بمصر على عدم دخول القاعِدة إليها، وفي غزة يتصارع إسلاميو حماس مع المتطرفين، الذين لا يعتبرونها عنيفة بما فيه الكفاية، وبذلك فإنّ الأحزاب الإسلامية المنظَّمة جيداً مفيدةٌ في منع الاستيلاء على المساجد، ونشر الفوضى في الأوساط المتدينة.

والسبب الثالث: أنّ هناك آمالاً أن يزداد الإسلاميون غير العنيفين انفتاحاً وتوَجُّهاً نحو الليبرالية، بسبب التجربة والخبرة والشعبية والمعرفة الأفضل بالعالم، وقد مورست الضغوط ضدهم فلم يتجهوا إلى العنف، ولذا فإن حدث انفتاحٌ باتجاههم، فلا شكّ أنهم سيزدادون إيماناً بالمسار السلمي وضروراته، فاستخدام الضغوط قد يدفع للراديكالية، والتسليم لهم بالمشاركة يدفع باتجاه المزيد من الاعتدال والإيجابية.

والسبب الرابع: أنّ هناك معارك جارية في عالم الإسلاميين يخوضها العلمانيون -مثل أيان هرسي علي، المولودة بالصومال، والمواطنة الهولندية السابقة- بيد أنّ هذه الطريقة هامشية، والمعارك الحقيقية تدور بين الإصلاحيين والتقليديين، والإسلاميين والمتطرفين. والتحدي الحقيقي لاندماج المسلمين في الغرب هو المتطرفون الذين لا يقبلون الديمقراطية، ويتحدثون عن جاهلية المجتمعات، أما الليبراليون الذي يعتمد عليهم بيرمان فهم فئةٌ بسيطةٌ وقليلة العدد، وهم يأتون غالباً من أُسَرٍ من الطبقة الوسطى المرتاحة، ولن يحصلوا على أصواتٍ كثيرةٍ في الانتخابات "الشفّافة" التي تريدها الولايات المتحدة، والاقتصار في الدعم على الفئات أو الأفراد الذين يدعمون إسرائيل يُضرُّ بمصالح أميركا، ويسيءُ إلى الليبراليين الذين عملوا منذ زمنٍ لنشر القيم التي يُنكرونها على الإسلاميين.

في النهاية يعمد بيرمان للدفاع عن هيرسي علي، التي يعتبرها من المنشقّين المسلمين القُدامى، والتي يُعجب بها الغرب لتمثيلها قيمه وممارساته التي يحبُّها، وبيرمان لا يفهم لماذا لا يتبنّاها الديمقراطيون المسلمون؟ وهو يتجاهل أنّ بين أسباب ثوران القاعدة شدة ليبرالية هذه المجموعة الصغيرة التي يجري تبنّيها من جانب الغرب, لكأنما يجري رفْضُ الأكثريات التي يتماسُّ معها الإخوان، ويمكن أن يجتذبوهم إلى الوسط بعيداً عن التطرف والابتزاز، وإنه ليس من المنتظر أن يختفي المسلمون من الوجود، ولا أن يغادروا الغرب،

ولـذلك فـإنه من المنصوح به إيجـاد طريقـة أو طرُق لإشـراك هؤلاء المواطنين الجدد في حضــارة الغرب وازدهــاره، وإذا كـانت الديمقراطيــة تعني شــيئاً فهـو التسـليم لمواطنيها بالتصـرف والحركـة بحريـة، وربمـا ينفرد رمضـان بالآـراء التي ذكرناها؛ لكنه كـان وما يزال واحـداً من كبار دُعاتها، وبيرمان شديد السُـخْطٍ على الغربيين الذين دعموا رمضان؛ لكنــه يعـترف أخيراً أنّ هؤلاـء قـد لاـ يجـدون طريقـةً أفضـل لـدعم الديمقراطيـة في العالم العربي!

****

الحواشي:

*) مراجعة لكتاب:

Paul Berman, The Flight of the Intellectuals (2010); Foreign Affairs, July, August 2010. PP.138-147